[بمناسبة معرض الكتاب] من باع ما يملك لشراء الكتب.

قال العلامة مقبل بن هادي الوادعي -رحمه الله- «ونصح طلبة العلم أن يحرصوا على اقتناء الكتب، حتى لو باع أحدهم سيارته، ولو باع أحدهم عمامته، من أجل أن يشتري كتاباً، الكتاب الواحد يساوي الدنيا». [قمع المعاند، للشيخ مقبل- رحمه الله-، ص 495].

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فإن الكتب منافعها عميمة، ومفاخرها عظيمة، وهي أكرم مال، وأنفس جمال، والكتاب آمن جليس، وآسر أنيس، وأسلم نديم، وأفصح كلام، من استوحش من الخليط والمعاشر جعل أنسه في الدفاتر، لأنها ألسن ناطقة، وعيون رامقة.

«والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشخذ طباعك، ويسط لسانك، وجود بيانك، وفحم ألفاظك، وبجح

نفسك، وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوام وصدقة الملوك». [الحيوان، للجاحظ. رحمه الله، (50/1)]

وقد اختلفت أحوال العلماء مع كتبهم، وتواترت قصص الكتاب مع صحفهم، حتى نقلوا في ذلك عجائب الروايات، وقيدوا

لنا نوادر الحكايات، ولا زال التاريخ المعاصر يسجل أروع الوقفات وأحسن المحطات، مما يجعل المرء يُعذر في جمعها

والإحاطة بها، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق كما يقولون.

ولعله يحسن في هذا المقام أن أذكر مقدمة حافلة حوت دررا من أخبار الكتاب والصحفيين، والنُساخ والوراقين، شريفة

الجوهر، كريمة العنصر، يطرب بساعها الثكلان، وينشط لقراءتها الكسلان، كأن نظمها السكر المذاب، بل رشف الثنايا

الغذاب.

فمن العلماء من كان شغوفا بجمع الكتب، فهذا ابن الأثير -رحمه الله- يذكر عن أبي القاسم صاحب بن عباد أنه «جمع من

الكتب ما لم يجمعه غيره، حتى إنه كان يحتاج في نقلها إلى أربعمئة جمل». [الكامل في التاريخ، لابن الأثير-رحمه الله-،

[(471/7)].

ومنهم من تُسر نفسه بمطالعة الكتب فتقوى الطبيعة حتى تدفع المرض، كما حكى ابن القيم الجوزية عن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمهما الله- أنه قال: ابتدأني مرض فقال لي الطبيب إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك وأنا أحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت وسرت قويت الطبيعة فدفعت المرض؟ فقال: بلى فقلت له: فإن نفسي تسر بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجد راحة، فقال: هذا خارج عن علاجنا أو كما قال. [روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم رحمه الله، ص 109].

ومنهم من كان لا يدع النظر والقراءة إلا يسيراً، كما ذكر الذهبي -رحمه الله- عن حفيد العلامة ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي -رحمهما الله- أنه لم ينشأ بالأندلس مثله كما لا وعلمه وفضلاً وكان على شرفه أشد الناس تواضعاً وأخفضهم جناحاً وعنى بالعلم من صغره إلى كبره حتى حكى عنه أنه لم يدع النظر ولا القراءة منذُ عقل إلا لئلا وفاة أبيه ولية بنائه على أهله. [تاريخ الإسلام، للذهبي رحمه الله، (1039/12) الشاملة].

ومنهم من كان لا يفارقه كتابه، كما حكى الجاحظ عن الحسن الوُلوي -رحمهما الله- أنه قال: عَبَّرْتُ مكثت -أربعين عامًا ما قُلْتُ ولا بِتُّ ولا انتكأْتُ إلا والكتابُ موضوعٌ على صدري. [الحيوان، للجاحظ رحمه الله، (51/1)].

ومنهم من كان ينظر ساعة بعد ساعة كم بقي من ورقه مخافة استنفاده، وانقطاع المادة من قلبه، كما نقل الجاحظ عن علي بن الجهم قوله: إذا استحسنيت كتاباً واستجدته، ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه، فلو تراني وأنا ساعة بعد ساعة أنظر كم بقي من ورقه، مخافة استنفاده، وانقطاع المادة من قلبه، وإن كان المصحف عظيم الحجم، كثير الورق، كثير العدد، فقد تم عيشي وكل سروري. [الحيوان، للجاحظ رحمه الله، (52/1)].

وذكر عنه أيضاً أنه كان يتناول الكتاب ليطرد النوم عنه، حيث يقول: إذا غشيني النعاس في غير وقت النوم تناولت كتاباً فأجد اهتزازي فيه من الفوائد والأريحية التي تعتادني وتعزيني من سرور الاستنباه وعز التبين أشد إيقاظاً من نهيق الحمار وهدة الهدم. [الحاسن والمساوي، لابراهيم بن محمد البيهقي رحمه الله، ص 8].

ومنهم من كان يكثر من تكرار كتاب بعينه، فهذا ابن بشكوال يذكر عن ابن عطية الغرناطي الحافظ «كان حافظاً للحديث وطرقه وعلله عارفاً بأسماء رجاله ونقلته، ذاكراً لمتونه ومعانيه. قرأت بخط بعض أصحابي أنه كرر " صحيح البخاري " سبع مئة مرة.». [العبر في خبر من غير، للذهبي - رحمه الله-، (411/2)].

حتى إن الإمام الفقيه أبو محمد عبدالله بن إسحاق المعروف بابن التبان قال عن نفسه: «كنت في أول ابتدائي أدرس الليل كله، فكانت أُمي تهاني عن القراءة بالليل، فكنت آخذ المصباح فأجعله تحت الجفنة، وأتعمد النوم، فإذا رقدت أخرجت المصباح وأقبلت على الدرس، وكان كثير الدرس ذكر أنه درس كتاباً ألف مرة». [ترتيب المدارك، للقاضي عياض - رحمه الله-، (249/6)].

ومنهم من بلغ الغاية في سرعة حفظه لكتابه، فهذا أحمد بن محمد بن هاني الطائي الأثرم تلميذ الإمام أحمد «وكان صادقاً قوياً الذاكرة، كان ابن معين يقول عنه: كان أحد أبويه... وكان حافظاً جليلاً لسرعة فهمه وحفظه». [البداية والنهاية، لابن كثير - رحمه الله-، (108/11)].

وفي (سير أعلام النبلاء (580/7) الشاملة) قال الذهبي - رحمه الله-: قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْعَظِيمِ: سَمِعْتُ ابْنَ مَهْدِيٍّ يَقُولُ: لَمَّا قَدِمَ الثُّورِيُّ الْبَصْرَةَ، قَالَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ! جِئَنِي بِأَنْسَانٍ أَذْكَرَهُ. فَأَتَيْتُهُ بِبِخَيِّ بْنِ سَعِيدٍ، فَذَكَرَهُ، فَلَمَّا خَرَجَ، قَالَ: قُلْتُ لَكَ: جِئَنِي بِأَنْسَانٍ، جِئَنِي بِشَيْطَانٍ -يَعْنِي: بَهْرَةَ حِفْظُهُ.

ومنهم من كان يحمل معه كتبه في سفره أينما ذهب، كما حصل لإسحاق ابن ميمون الموصلبي النديم حيث قال الأصمعي: «خرجت مع الرشيد إلى الرقة فلقيت إسحاق فقلت له هل حملت شيئاً من كتبك فقال حملت ما خفت فقلت كم مقداره قال ثمانمائة عشر صندوقاً فصجبت وقلت إذا كان هذا ما خفت فكيف يكون ما ثقل فقال أضغاف ذلك». [الوافي بالوفيات، للصفدي - رحمه الله-، (254/8)، الشاملة].

ومنهم من تزوج امرأة من أجل الكتب، وفي هذا ذكر الذهبي - رحمه الله- أن «إسحاق بن زاهويه تزوج بامرأة رجل كان عنده كتب الشافعي مات، لم يتزوج بها إلا للكتب». [السير، للذهبي - رحمه الله-، (266/8)، الشاملة].

ومنهم من تعذله امرأته في شراء الكتب فيقول لها:

وقائلة أنفتت في الكتب ما حوت ::: يمينك من مالٍ فقلت: دعيني
لعلِّي أرى فيها كتاباً يدلُّني ::: لأخذ كتابي أمناً بيمينني

ومنهم من تغار زوجته عليه فلا تجد شيئاً يغيظه وأمرًا يحنقه غير إحراق كتابه، فهذا الليث بن المظفر صاحب الخليل بن أحمد، وكان الخليل منقطعاً إلى الليث، فلما صنف كتابه العين، خصه به فحضي عنده جداً، ووقع منه موقعا عظيماً، ووهب له مائة ألف، وأقبل على حفظه وملازمته فحفظ منه النصف، واتفق أنه اشترى جارية نفيسة، فغارت ابنة عمه

وقالت: والله لأغيطنه وإن غظته في المال لا يبالي، ولكني أراه مُكبا ليله ونهاره على هذا الكتاب، والله لأفجعه به فأحرقته، فلما علم اشتد أسفه، ولم يكن عند غيره منه نسخة، وكان الخليل قد مات. [المزهر في علوم اللغة، للسيوطي- رحمه الله-، (62/1)].

ومنهم ولد في المكتبة فكان يلقب بابن الكتب وبأبي الكتب، وقد قال الزركلي في الأعلام في ترجمة السيوطي -رحمهما الله-: «قرأت في كتاب «المنح البادية» أنه كان يلقب بابن الكتب، لأن أباه طلب من أمه أن تأتية بكتاب، ففاجأها المحاض، فولدته وهي بين الكتب». [الأعلام، للزركلي-رحمه الله-، (301/3)، الشاملة].
وأما تلقيبه بأبي الكتب فلأنه ألف في شتى العلوم حتى بلغت مؤلفاته أكثر من خمسة آلاف عنوان.

ومنهم من يكون إهداء الكتب عنده من أنفس الهدايا، فعن الجاحظ قال: أردت الخروج مع محمد بن عبد الملك ففكرت في شيء أهديه له، فلم أجد شيئاً أشرف من كتاب سيويه. فقلت له: أردت أن أهدي لك شيئاً ففكرت فإذا كل شيء عندك فلم أر أشرف من هذا الكتاب، وهذا كتاب اشتريته ما من ميراث الفراء، فقال: والله أهديت إلى شيئاً أحب إليّ منه. تاريخ بغداد (12/ 196).

ومنهم من يصنف كتابه وهو ينتقل في ميادين القتال، فهذا الحسين بن الإمام القاسم الزيدي «يصنف كتبه وهو ينتقل في ميادين القتال، يقود الجيوش، ويحاصر الأتراك، ويشن عليهم الغارات». [الأعلام، للزركلي-رحمه الله-، (252/2)].

ومنهم من دفن كتبه لأنه حمله على كتابتها شهوة الحديث، فقد ذكر ابن الملقن عن سفيان الثوري -رحمهما الله- أنه أوصى بدفن كتبه (قال الشيخ محمد بازمول حفظه الله في خبر الكتاب ص 115: والمراد بكتبهم هنا: أصول سماعتهم من المشايخ)، وكان ندم على أشياء كتبها عن الضعفاء، وقال: " حملني عليها شهوة الحديث " [طبقات الأولياء، لابن الملقن رحمه الله، ص 32].

ومنهم من دفن كتبه لأنه ألفها على نية التفوق على الأقران، وهذا صنيع العلامة المفسر الأصولي الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- حيث جاء في ترجمته أنه ألف قبل بلوغه نظماً في أنساب العرب يقول في مطلعها:

سَمَّيْتُهُ بِخَالِصِ الْجَمَانِ :::: فِي ذِكْرِ أَنْسَابِ بَيْ عَدْنَانَ

وَبَعْدَ الْبُلُوغِ دَفَنْتُهُ قَالَ لِأَنَّهُ كَانَ عَلَى نِيَّةِ التَّفَوُّقِ عَلَى الْأَقْرَانِ، وَقَدْ لَامَهُ مَسَائِحُهُ عَلَى دَفْنِهِ وَقَالُوا: كَانَ مِنَ الْمُمَكِّنِ تَحْوِيلُ النِّيَّةِ وَتَحْسِينُهَا. [منسك الإمام الشنقيطي، لعبدالله الطيار وعبدالعزیز الحجلان، ص 32].

ومنهم من «طرح كتبه في البحر، وقال يناجيا: نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول، عناء وذهول، وبلاء وخمول.

وهذا يوسف بن أسباط، حمل كتبه إلى غار في جبل، وطرحها فيه وسد بابه، فلما عوتب على ذلك قال: دلنا على العلم في الأول، ثم كاد يضلنا في الثاني، فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل من أردناه.
وهذا أبو سليمان الناراني، جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار، ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك.
وهذا سفيان الثوري مزق ألف جزء، وطيرها في الريح، وقال: ليت يدي قُطعت من هاهنا، بل من هاهنا، ولم أكتب حرفاً». [معجم الأدباء، لياقوت الحموي، (1931/5)].

ومنهم من كان يفدي كتبه بأهله وماله، كما ذكر ابن عبد البر -رحمه الله- عن عَبْدِ الرَّزَّاقِ، عَنِ مَعْمَرٍ، عَنِ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنِ أَبِيهِ أَنَّهُ أُحْرِقَتْ كُتُبُهُ يَوْمَ الْحَزَّةِ، وَكَانَ يَقُولُ: «وَوَدِدْتُ لَوْ أَنَّ عِنْدِي كُتُبِي بِأَهْلِي وَمَالِي». [جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر -رحمه الله-، (326/1)].

ومنهم من بقي أمدًا لا يكلم أحدا حزنا وهما وذهولا وتحيرا على احتراق كتبه، كما وقع لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي لما احترقت كتبه جراء حريق كان بمدينة السلام فاعتم لذلك حتى قال: بقيت شهرين لا أكلم أحدا حزنا وهما، وانحدرت إلى البصرة لغلبة الفكر علي، وأقيمت مدة ذاهلا متحيرا. [معجم الأدباء، لياقوت الحموي -رحمه الله-، (819/2)].

ومنهم من احترقت داره فأكرمه الله بحفظ كتبه لأنها كانت مضبوطة متقنة، كما جرى لأبي جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن ميمون الطليطلي -رحمه الله-، فإنه كان قد جمع من الكتب كثيرا في كل فن، وكانت جلها بخط يده، وكانت منتخبة مضبوطة صحاحا أمهات لا يدع فيها شبهة مهيبة، وقلما يجوز فيها عليه خطأ ولا وهم.
قال ابن مظاهر: سمعت جُهاهر بن عبدالرحمن يقول: إن وقت وقوع الناس في أسواق طليطلة واحتراقها كانت دار أحمد بن محمد هذا في الفرائين فاحترقت الدار، إلا البيت التي كانت فيه كتب أحمد، وكان ذلك الوقت في الرباط، وعجب الناس من ذلك، وكانوا يقصدون البيت وينظرون فيه. [الصلاة، لابن بشكوال، (53/1)].

ومنهم من تزامن فقدته لكتبه مع فقدته لولده، فكان فقدته لكتبه أشد عليه من فقدته لولده، وهو علامة الجزيرة في الأنساب الشيخ حمد الجاسر، حيث احترقت كتبه في بيروت، وتزامن احتراق مكتبته مع وفاة ابنه محمد في حادث سقوط طائرتة المتجهة إلى هولندا، فقال الشيخ حمد الجاسر -رحمه الله- في محاضرة عامة: لفقد كتبي أشد علي من فقد ولدي. [علماء احترقت كتبهم، لأحمد الباتلي، ص 18].

ومنهم تدعوه الحاجة لبيع كتاب له في غاية الجودة، فيضع فيها أبياتا مزجت عند كتابتها بدم القلب ودمع العين وعرق الجبين، ويشاء الله أن يطلع عليها المشتري فتبلغ منه مبلغا عظيما، فيعيد له الكتاب ويهديه مالا عاجلا، وفي هذا نقل السيوطي في حاشية بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص78 ما يلي:

حكى الخطيب أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي اللغوي أن أبا الحسن علي بن أحمد بن علي بن سلك الفالي الأديب كانت له نسخة بكتاب «الجمهرة» لابن دريد في غاية الجودة، فدعته الحاجة إلى بيعها فباعها واشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم بستين دينارا، وتصفحها فوجد فيها أبياتا بخط بائعها أبي الحسن الفالي، وهي:

أنست بها عشرين عاما وبعتها ::: لقد طال وجدي بعدها وحنيني

وما كان ظني أنني سأبيعها ::: ولو خلدتني في السجون ديوني

ولكن لضعف وافتقار وصيبة ::: صغار عليهم تستهل شؤوني

فقلت ولم أملك سوابق عبرة ::: مقالة مكوي الفؤاد حزين

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك ::: كرائم من رب بهن ضنين

قال السيوطي معلقا: فأرسلها الذي اشتراها وأرسل معها أربعين دينارا أخرى، رحمهم الله.

ومنهم من يضيق عليه الحال ويسوء به المال، حتى يضطر لبيع كتبه وعيناه تذر فان بالدموع، كالمفارق لأهله الأعراء، والمفجوع بأحبابه الأوداء، ويحكي عنه ياقوت الحموي -رحمه الله- فيقول في (معجم الأدباء، (3/1013)): «كان الحسن بن محمد بن محمود، أبو سعد بن أبي المعالي الكاتب من الأدباء العلماء ... وكان من المحبين للكتب واقتناءها، والمبالغين في تحصيلها وشراؤها، وحصل له من أصولها المتقنة وأمهاتها المعينة، ما لم يحصل أحد للكثير، ثم تقاعد به الدهر وبطل عن العمل، فرأيته يخرجها ويبيعها وعيناه تذر فان بالدموع، كالمفارق لأهله الأعراء، والمفجوع بأحبابه الأوداء، فقلت له: هون عليك -أدام الله أيامك- فإن الدهر ذو دول، وقد يسعف الزمان ويساعد، وترجع دولة العز وتعاود، فتستخلف ما هو أحسن منها وأجود، فقال: حسبك يا بني: هذه نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقتها في تحصيلها، وهب أن المال يتيسر، والأجل يتأخر - وهيئات- فحينئذ لا أحصل من جمعها بعد ذلك إلا على الفراق، الذي ليس بعده تلاق، وأنشد بلسان الحال:

هب الدهر أرضاني وأعتب صرفه ::: وأعقب بالحسنى وفك من الأسر

فمن لي بأيام الشباب التي مضت ::: ومن لي بما قد مر في البؤس من عمري؟»

ومنهم من يبيع كتابه ظاناً أنه لا يحتاج إليه، فتمر عليه الأيام ويجول في خاطره أمر كان في ذلك الكتاب فيطلبه في جميع كتبه ولا يجده فيشده قلقة ويطول أرقه، «كما حكى عن بعض العلماء، قال:

بعث في بعض الأيام كتاباً ظننت أني لا أحتاج إليه، فلما كان ذات يوم هجس في صدري شيئاً كان في ذلك الكتاب فطلبت في جميع كتبي، فلم أجده، فاعتمدت أن أسأل عنه عالماً عند الصباح، فمازلت قائماً على رجلي إلى الصباح، قيل: فهلا قعدت؟ قال: لطول أريقي وشدة قلتي». [تقييد العلم، للخطيب-رحمه الله-، ص 176].

ومنهم من عمي في معالجة كتبه لما غرقت، وفي هذا ترجم الزركلي لسعيد بن المبارك الأنصاري البغدادي المعروف بابن الدهان فقال: «تصانيفه كثرة وكان قد أبقاها في بغداد، فطغى عليها سيل، فأرسل من يأتيه بها إلى الموصل، فحملت إليه وقد أصابها الماء، فأشير عليه أن ييخرها ببخور، فأحرق لها قسماً كبيراً أثر في عينيه فعمي». [الأعلام، للزركلي-رحمه الله-، (100/3)].

ومنهم من مات بسبب الكتب، فقد روي أن سبب موت الجاحظ «كان بوقوع مجلدات عليه، وكان من عادته أن يصفها قائمة كالحائط، محيطة به، وهو جالس إليها، وكان عليلاً فسقطت عليه فقتلته». [المختصر في أخبار البشر، للملك المؤيد-رحمه الله-، (47/2)].

ومنهم من ينهي من تأليف كتابه فيولم له، فقد ذكر الصفي-رحمه الله- أن أبا مسلم الكجي «كأن يملى برحبة غسان ويملي على سبعة مستمليين كل واحد منهم يبلغ الذي خلفه ويكتب الناس عنه قياماً بأيديهم المحابر فكان في مجلسه نيف وأربعون ألف محبرة سوى النظارة كذا قال سبط ابن الجوزي في المزمرة وأثقفوا على صدقه وثقتة وكان قد نذر إذا حدث يتصدق بألف دينار فلما فرغوا من سماع السنن عليه عمل مائة للمحدثين أثقف فيها ألف دينار وقال شهدت اليوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبل قولي ولو شهدت وحدي على دستجة بقل احتجت إلى شاهد آخر يشهد معي أفلا أصنع شكراً لله تعالى». [الوافي بالوفيات، للصفي-رحمه الله-، (22/6)، الشاملة].

ومنهم من يؤلف كتاباً فتخترمه المنية قبل تمامه فيكمله ابنه، كما حصل لأحمد بن عبدالرحمن بن الصقر الأنصاري حيث «ولي القضاء بفرناطة ثم بإشبيلية. ودخل مراكز ومعه خمسة أحمال من الكتب فتولى خدمة الخزانة العلمية، وكانت من الخطط التي لا يعين لها إلا أكبر أهل العلم. وصنف (أنوار الأفكار فيمن دخل جزيرة الأندلس من الأبرار) ومات قبل إتمامه، فأكمله ابن له اسمه عبد الله». [الأعلام، للزركلي-رحمه الله-، (146/1)].

إلا أن الغريب في هذا المقام ما حصل لقاسم بن ثابت السرقسطي العوفي، وذلك حين «ألف قاسم كتاباً في شرح الحديث، سمّاه: كتاب الدلائل؛ بلغ فيه الغاية من الإثقان؛ ومات قبل إكماله فأكمله أبوه ثابت بعده». [تاريخ علماء الأندلس، لابن الفرضي-رحمه الله-، (403/1)].

ومنهم من يموت فيجتمع الناس لبيع كتبه فيمكنون عاما كاملا في ذلك، كما وقع لعبدالرحمن بن محمد بن فطيس حيث ذكر ابن بشكوال «أن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتبه مدة عام كامل في مسجده في الفتنة في الغلاء، وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية». [الصلاة، لابن بشكوال-رحمه الله-، (468/1)].

ومنهم من يكون يبيع مكتبة زوجها المتوفى أشد عليها من ذهاب صاحبها، فهذه الزوجة الفاضلة الكريمة زوج شيخ العربية في عصرنا محمود شاكر -رحمه الله- تسجل لنا موقفا نادرا يقول من كان شاهدا عليه: «ثم إن لها موقفا جليلا، كنت شاهدا عليه، يوم جاء أحد كبار أثرياء الخليج بعد وفاة شيخنا -رحمه الله-، ممن لهم عناية بالكتب يطلب شراء مكتبة شيخنا -رحمه الله-، ومعه شيك على بياض، ليكتبوا فيه الرقم الذي يريدون...، فأبت أن تبيع المكتبة، كأنها أطل قلبها على وجه شيخنا فلم تبصر بياض الشيك، ولم تحفل بشيء من هذه الدنيا الفانية!

فلما سألتها يوماً: لماذا لم تقبلي ببيع المكتبة؟

فأجابتي إجابة فريدة، وقالت: لقد قلت لهم: «إن ذهاب المكتبة عندي أعظم على قلبي من ذهاب صاحبها، فما دمته حية فلن أفعل ذلك، فإذا مت فأتهم وما تريدون». [ظل النديم، وجدان العلي-رحمه الله-، ص 51].

وعودا على بدء، ودخولا في موضوعنا بعد مقدمة شاملة أطلت فيها النفس، وأشعلت بها القبس، لأستثير بها العزائم، وأنوه لما فيها من الغنائم.

فهذا أحمد بن محمد بن عبدالرحمن، أبو جعفر القصري، «كان يقول: لي أربعون سنة ما جف لي قلم. وكان ربما باع بعض ثيابه واشترى بثمنه كتابا أو رقوقا لنسخ كتاب». [الأعلام، للزركلي-رحمه الله-، (206/1)].

وذكر ابن أبي حاتم في مقدمة الجرح والتعديل برقم 1476 قال: «حدثنا عبدالرحمن قال: سمعت أبا زرعة يقول: «خرجت من الزبيّ المزة الثانية سنة سبع وعشرين ومائتين، ورجعت سنة اثنتين وثلاثين في أولها، بدأت فحججت ثم خرجت إلى مصر، فأقمت بمصر خمسة عشر شهرا، وكنت عزمته في بدو قدومي مصر أني أقبلُ المقام بها، لما رأيت كثرة العلم بها وكثرة الاستفادة، عزمته على المقام، ولم أكن عزمته على سماع كتب الشافعي، فلما عزمته على المقام وجهت إلى أعرف رجل بمصر يكتُب الشافعي، فقبلتها منه بثمانين درهما أن يكتبها كلها، وأعطيتها الكاغد، وكنت حملت معي ثوبين. لأقطعها لنفسني، فلما عزمته على كتابتها، أمرت ببيعها، فبيعا بستين درهما، واشتريت مائة ورقة كاغد بعشرة دراهم، كتبت فيها كُتُب الشافعي». [مقدمة الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم-رحمه الله-، (447/2)، تحقيق: أبو همام البيضاوي].

قال ابن رجب -رحمه الله-: «حدثني الإمام طلحة بن مظفر العلي قال: بيعت كتب ابن الجواليقي في بغداد، فحضرها الحافظ أبو العلاء الهمداني، فنادوا على قطعة منها: ستين دينارا، فاشترتها الحافظ أبو العلاء بستين دينارا، والإنظار من يوم الخميس إلى يوم الخميس. ففرح الحافظ، واستقبل طريق همدان، فوصل فنادى على دار له، فبلغت ستين دينارا. فقال: بيعوا. قالوا: تبلغ أكثر من ذلك. قال: بيعوا. فباعوا الدار بستين دينارا فقبضها، ثم رجع إلى بغداد. فدخلها يوم

الخميس، فوفى ثمن الكتب. ولم يشعر أحد بحاله إلا بعد مدة». [ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب-رحمه الله-، (277/2)، الشاملة].

وقال ابن رجب أيضا: وذكر ابن النجار عنه- أي عن عبدالله بن الخشاب البغدادي-: «أنه اشترى يوماً كتاباً بخمسة دنانير ولم يكن عنده شيء، فاستعملهم ثلاثة أيام، ثم مضى ونادى على داره، فبلغت خمسمائة دينار، فنقد صاحبها وباعه بخمسمائة دينار ووفى ثمن الكتب وبقيت له الدار». [ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب-رحمه الله-، (251/2)، الشاملة].

وذكر ابن مفلح في المقصد الأرشد عن عبدالله بن المبارك العكبري المقرئ الفقيه المعروف بابن نبال أنه: «نفقه على أبي الوفا ابن عقيل وأبي سعد البرداني وكان يصحب شافعا الحنبلية فأشارَ عَلَيْهِ بِشراء كتب ابن عقيل فَبَاعَ ملكاً لَهُ وَاشْتَرى بِثمنِهِ كتابَ المُتُونِ والفصول ووقفهما على المُسلمين وكانَ خيراً من أهل السَّنة». [المقصد الأرشد في أصحاب الإمام أحمد، لابن مفلح-رحمه الله-، (63/2)، الشاملة].

ونقل ابن فرحون في ديباجه المذهب عن أبي القاسم خلف مولى يوسف بن بهلول البلنسي المعروف بالبريلي أنه: «لما أكمل كتابه -التقريب في شرح المدونة- دخلت منه نسخة صقلية وعبد الحق بها فلما قرأه ونظر فيه إلى أقواله وما أدخله فيه من كتابه استحسنه وأراد شراءه فلم يتيسر له ثمنه فباع حوائج من داره واشتراه فغلا الكتاب وتنافس فيه الناس عند ذلك». [الديباج المذهب، لابن فرحون-رحمه الله-، ص 184].

وهذا العالم الكبير محمد نعيم اللكهنوي -رحمه الله- «كان حريصاً على جمع الكتب النفيسة، يقبل هدايا الكتب، وإنه باع داره التي كانت على جسر فرنكي محل، واشترى بثمنها حاشية الطحطاوي على الدر المختار بستين ربية». [نثر الجواهر والدرر، للدكتور يوسف المرعشلي-رحمه الله-، ص 1512].

وها هو الشيخ العلامة المحدث مقبل بن هادي الوادعي -رحمه الله- يختم خرزات هذا العقد المتلألاً في سماء العلم فيقول: «ونصح طلبة العلم أن يحرصوا على اقتناء الكتب، حتى لو باع أحدهم سيارته، ولو باع أحدهم عمامته، من أجل أن يشتري كتاباً، الكتاب الواحد يساوي الدنيا». [قمع المعاند، للشيخ مقبل-رحمه الله-، ص 495].

ثم إنك تجده يطبق ذلك عملياً بأروع مثال وأحسن مقال، فهذا الشيخ عبدالله البخاري -حفظه الله ورعاه- يحكي عنه في صوتية فيقول: لماذا أقول لكم لا يستغني أحد عن كتاب؟، ولا تستغني تقول خلاص الكمبيوتر يكفي، أذكر أحد شيوخنا ذكر عن الشيخ العلامة مقبل الوادعي لما كان في المدينة النبوية إبان دراسته في الجامعة، يقول الشيخ: كان يدرس في بيته وكنا نجلس على حصير، فلما جئنا يوماً ما وجدنا الحصير فجلسنا على الأرض، وخرج الشيخ من غرفته يحمل كتاب العلل لابن أبي حاتم وهو يتسم فرحاً، قال: أبشركم بعت الحصير واشتريت العلل.

وختاماً، ومن باب نافلة القول، ينبغي أن يتنبه طالب العلم إلى مسألة يغفل عنها الكثير منهم، وهي أنه يكون مولعاً بجمع الكتب وترتيبها وترتين مكتبته بها، ولا يستفيد منها وينفع بها غيره، فتكون حجة عليه لا له.

وكما يقول الشيخ محمد بن هادي -حفظه الله- أن طالب العلم يجب عليه أن يحفظ شيئاً من أساسيات العلم في صدره، ويحيطه بعنايته، ويحييه بذاكرته، حيناً بعد حين، وكثيراً ما يستشهد بقول الشاعر:

علمي معي أينما يمت أحمله ::: بطني وعاء له لا بطن صندوق

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي ::: أو كنت في السوق كان العلم في السوق

وقول الآخر:

تكتب العلم وتلقي في صفتي ::: ثم لا تحفظ لا تفلح قط

إنما علمك ما تحفظه ::: مع فهم وتوقٍ من غلط

ويضرب الشيخ -متع الله بالصحة والعافية- مثالا رائعا فيقول ما معناه: القدر الذي يحفظه طالب العلم في صدره يكون دائما معه ينفقه في كل حين وأن كالدرهم التي يجعلها المرء في جيبه، وأما المطولات والشروحات وغيرها فهي كالخزائن المحبوة في البيت يرجع إليها عند الحاجة لها.

وقد وردت في هذا آثار أسوق منها ما تيسر جمعه، فمنها:

قال الخطيب في جامعه (373/2): حدثنا عبد الرزاق الصنعاني قال: «كُلُّ عِلْمٍ لَا يَدْخُلُ مَعَ صَاحِبِهِ الْحَمَامَ فَلَا تَعُدُّهُ عِلْمٌ»

ومقصده -رحمه الله- أهمية الحفظ وضبط المسائل، وأن العلم هو ما وعته الذاكرة فاستغنت به عن الكتب والأسفار، وأصبحت رموزه منقوشة على لوح الذاكرة، مكونة في الصدر، ومحفورة على صفحة القلب، حيثما حللت كان معك!. قال محمد بن القاسم بن خلاد: «قيل: الاحتفاظ بما في صدر الرجل أولى من درس دفتره، وحرف تحفظه بقلبك أشفع لك من ألف حديث في دفاترك». [الجامع، للخطيب -رحمه الله-، (403/2)=].

وهذا أبو موسى عبد الرحمان بن موسى الهواري من أهل (استجه) «صدر إلى الأندلس، من سفره، فعطب ببحر تدمير فذهبت كتبه، فلما قدم (استجه) أتاه أهلها يهنئونه بقدمه، ويعزونه بذهاب كتبه فقال لهم: ذهب الخرج وبقيت الدرج. يعني ما في صدره». [ترتيب المدارك، للقاضي عياض -رحمه الله-، (343/3)، الشاملة].

قال ابن العديم في (بغية الطلب في تاريخ حلب (2490/5)، الشاملة): ثم حكى صاحب أن الإمام أبا حامد الغزالي الصوفي كان رحل إلى أبي نصر الاسماعيلي بجرجان، وعلق عنه، ثم رجع إلى طوس، فقطع عليه الطريق، وأخذ تعليقه، فقال لمقدم قطاع الطريق: ردوا علي تعليقتي، فقال: وما التعليقة؟ قال: مخللة فيها كتب علمي، وقصصت عليه قصتي، فقال، لي: كيف تعلمت وأنت تأخذ هذه المخللة تتجرد من عملك وبقيت بلا علم! فردها علي، فقلت: هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني لأمري، قال: فدخلت طوس، وأقبلت على أمري ثلاث سنين حتى تحفظت جميع ما علق، فصرت بحيث لو قطع الطريق لا أحرم علمي.

وإلى هنا فقد تم مقصودي من هذا المقال الذي أسأل الله أن يجعله محركا للنفس، مثيرا للهمم، موقظا للعزم، نافعا للخلق، موصوفا بالصدق، والله أعلم والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.